السلطان محمد الثاني
(الفاتح)

فترة الحكم: ١٤٤٤– ١٤٤٦ (الفترة الأولى)

١٤٥١– ١٤٨١ (الفترة الثانية)

السلطان العثماني السابع

الألقاب والأسماء الشعرية: الفاتح، وعوني، وأبو الفتح، و"غازي خُنكار" (الملك الغازي)

اسم الأب: مراد الثاني

اسم الأم: هُمَا خَاتُونْ

محل وتاريخ الميلاد: أدِرْنه، ٣٠ مارس/آذار ١٤٣٢

العمر عند اعتلاء العرش: ١٣ عاما (الفترة الأولى)، و١٩ عاما (الفترة الثانية)

سبب وتاريخ الوفاة: النقرس والسم، ٣ مايو/أيار ١٤٨١

مكان الوفاة وموقع الضريح: توفي في كَبزة (بلدة في شرقي إسطنبول)، ويقع قبره بالقرب من مسجد الفاتح بإسطنبول

أبناؤه: بايزيد، وجَم، ومصطفى

بناته: عائشة سلطان، وجَوْهَرْخَانْ سلطان

لوحة بفن المنمنمات تُصوّر السلطان محمد الفاتح، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسمَ "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".

خلف السلطان محمد الثاني والده السلطان مراد الثاني على العرش بعد وفاته عام ١٤٥١. وحسب التاريخ العالمي وكذلك التاريخ التركي-الإسلامي يعد السلطان محمد الثاني هو الحاكم الذي شكّل فتحُه لإسطنبول نهاية للقرون الوسطى وبداية العصر الحديث.

بعد أن كان محمد محافظا على أماسيا في غرب الأناضول وهو أمير صغير، أصبح هو الوريث الوحيد الحي للعرش بعد وفاة شقيقه الأكبر علاء الدين بشكل مفاجئ. وفي عام ١٤٤٤، كان محمد الثاني في العاصمة العثمانية أدِرْنه بجانب والده حين وقّع معاهدة السلام مع كل من الملك المجري وحاكم الصرب وسفراء الأمير الولاشي.

واعتلى العرش للمرة الأولى في عام ١٤٤٤، حين قرر والده التقاعد والعزلة في بورصا، لكنه عاد كي يقود الجيش العثماني في معركة فَارْنَا على الساحل الغربي للبحر الأسود ضد الصليبيين. وأعاد العرش إلى والده للمرة الثانية عندما وجد أنه لا يستطيع مواجهة الصراعات المحتدمة بين الباشاوات، إضافة إلى تمرد الانكشارية. ومن الواضح أن العامَين (من ١٤٤٤ إلى ١٤٤٥) قد منحا لهذا السلطان الشاب خبرة عميقة في الحكم بحيث أصبح يتقن المهارات الدبلوماسية، ويقود الجنود، ويتولى سلطة الدولة بنجاح. ولهذا السبب فقد كان قادرا على تطبيق الخطط المعقدة اللازمة لفتح إسطنبول بمجرد اعتلائه العرش بعد وفاة والده في نهاية الأمر. وخلال سنواته كولي للعهد، خاض الأمير محمد الثاني معارك بحرية ضد البنادقة، وسار مع الجيش لمواجهة تمرد إسكندر بك، وقاتل بنفسه في ميسرة الجيش خلال معركة كوسوفا الثانية. وكل ذلك زوّد الأمير الصغير بخبرة واسعة استغلها بكفاءة بعد ذلك في فتوحاته القوية والفعالة في سبيل إعلاء كلمة الله. اعتلى محمد الثاني العرش للمرة الثانية بعد وفاة والده، فكان السلطانَ العثماني وهو في التاسعة عشر من عمره، وكان ذلك يوم ١٨ فبراير/شباط من عام ١٤٥١. وخلال سنوات حكمه الأولى واجه السلطان محمد الثاني الكَرَمانيين الذين تحالفوا مع البنادقة وأثاروا بكوات آخرين في الأناضول ضد العثمانيين، مستغلين تغيير الحكم في الدولة العثمانية. وفي نهاية المواجهة مع الكرمانيين تم توقيع معاهدة سلام بناء على طلب "إبراهيم بك" الكرماني.

أراد السلطان محمد الثاني أن يحقق الأمن في الأناضول قبل البدء في فتح إسطنبول؛ فتوصل للسلام مع الكرمانيين، ثم أقام علاقات طيبة مع المماليك. واستغل السلطان الصراعات بين ولايات البنادقة والنابوليين والصقليين في إيطاليا استغلالا تاما. وبحنكة سياسية عظيمة، أعطى مميزات تجارية للبنادقة والجنويين، وبذلك وقفوا إلى جانب العثمانيين كما كان يتوقع.

لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان الصغير يمتطي حصانا، وهي من تصميم الفنان أوزكان أوزكان

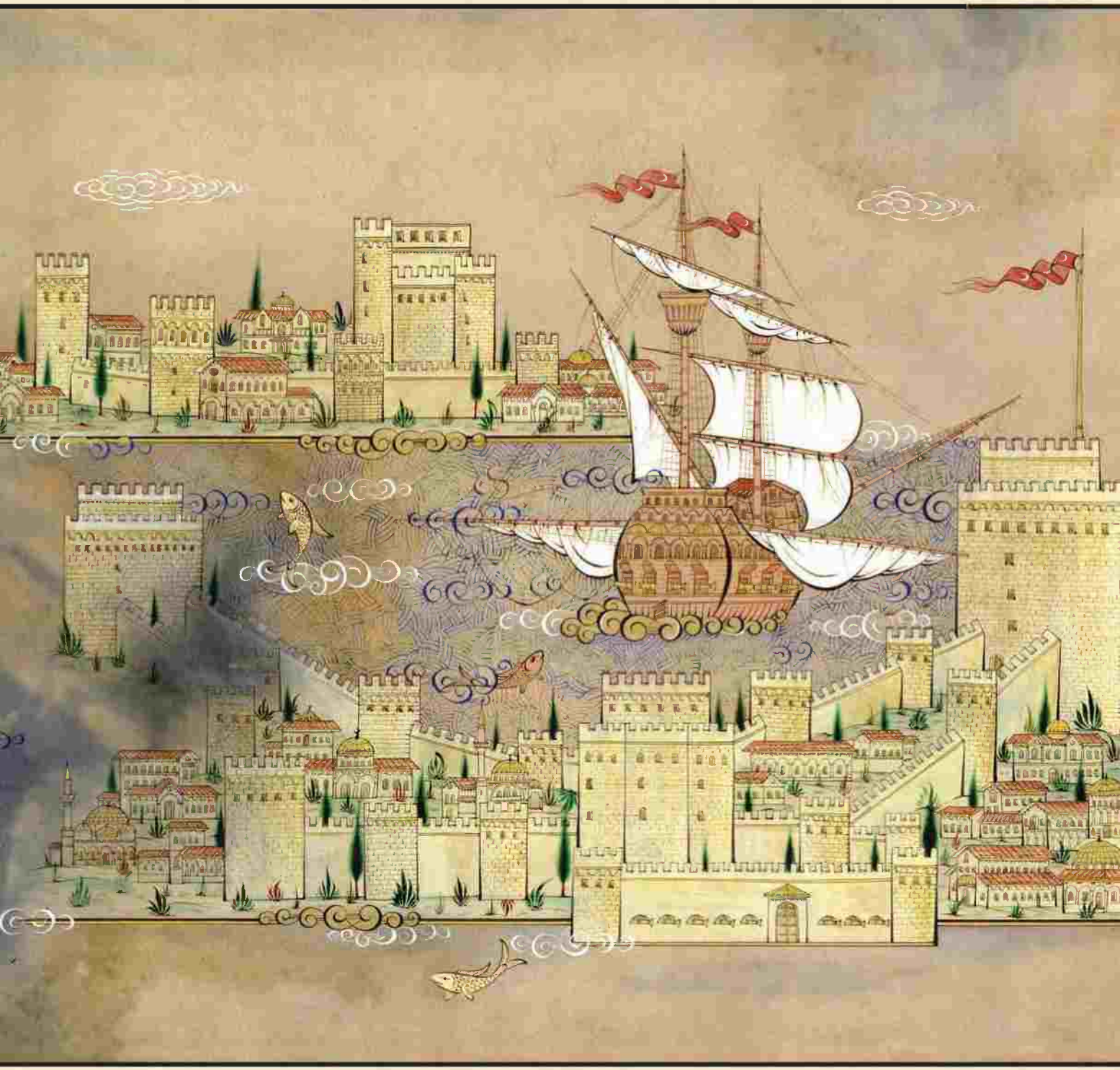

لوحة بفن المنمنمات لحصن الروملیان الذي أنشأه السلطان محمد الفاتح طول حصن الأناضول، وهي من تصميم الفنان إرسان برشيم

كان السبب الأول الذي دفع السلطان محمد الثاني إلى فتح إسطنبول هو رغبته في تحقيق قول الرسول ﷺ، والحظوة بمدحه الوارد في الحديث الشريف: "لتفتحنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش". وقد أدرك العثمانيون -منذ تأسيس دولتهم- الموقعَ الذي سيحوزه الجنود في الدار الآخرة بموجب هذه البشارة النبوية فبذلوا جهودا جبارة في سبيل فتح إسطنبول حيث قام كل من "يلدريم بايزيد" وموسى جلبي والسلطان مراد الثاني بمحاصرتها ولكنهم لم ينجحوا في فتحها. ومن الناحية الإستراتيجية كان فتح إسطنبول يعني توحيد الأراضي العثمانية الموجودة في قارتين متجاورتين، هما الأناضول (آسيا الصغرى) والروملي في أوروبا. وعلاوة على ذلك فإن فتح إسطنبول كان سيزيل العقبات التي كانت تضعها بيزنطة أحيانا أمام نقل القوات العسكرية العثمانية من الأناضول إلى الروملي.

كانت بيزنطة دائما تُثير الروح الصليبيةَ في أوروبا المسيحية، وتحرِّض على تنظيم الحملات الصليبية، وإذا فُتحت إسطنبول فإن هذا سيعني تفكك بيزنطة نهائيا. والأسوأ من ذلك كان تحريض بيزنطة لبكوات الإمارات الأناضولية المجاورة على التمرد ضد العثمانيين. كما دعمت أولياءَ العهد العثمانيين لإشعال المنافسات على العرش العثماني، وهو ما أدى إلى إراقة الدماء بين الأشقاء وتفاقم الموقف في الدولة العثمانية. وعلى المدى الأطول أدت حركات التمرد التي تزعمتها بيزنطة، باستخدام أولياء العهد العثمانيين، إلى إعاقة الفتوحات العثمانية وإفساد روح الأخوَّة في الأناضول.

كان السلطان محمد الثاني مخططا بعيد النظر في فتحه لإسطنبول، فقد بدأ استعداداته لفتح المدينة في أعقاب عودته من مواجهته مع الكرمانيين. وتوضِّح عملية الإعداد أن السلطان الشاب قد تعلم دروسه جيدا من خبراته السابقة. وكان المثال الواضح هو إنشاؤه لقلعة "حصار روملي" عام ١٤٥٢ على الجانب الأوروبي من البوسفور في الشاطئ المقابل لقلعة الأناضول، في محاولة تنم عن معرفة جيدة تهدف إلى منع الإمدادات القادمة من المستعمرات في جَنوا على البحر الأسود من الوصول إلى بيزنطة.

كما توصل السلطان محمد الفاتح لاتفاقية مع الكرمانيين في الأناضول، ووقَّع عدة معاهدات (بواسطة خليل باشا الجَنْدَرْلي) مع المجريين والبنادقة في أوروبا. ثم أقنع السلطان محمد الثاني كلا من حاكم الصرب وملك البوسنة بالوقوف إلى جانب العثمانيين. كما احتل على قلعتي "فِيزَة" و"سِلِوْرِي" بالإضافة إلى مناطق أخرى خارج مدينة إسطنبول الداخلية، وبهذا قطع علاقات بيزنطة واتصالاتها مع الغرب في النهاية. ولما اتخذ السلطان التدابير اللازمة وأصبحت الدولة في أمان من جهة الشرق والغرب على حد سواء أعرب السلطان عن عزمه على فتح إسطنبول. وفي الوقت نفسه أرسل فرقا احتياطية إلى المورة والبلقان للاستعانة بها عند الحاجة، الأمر الذي يدل على اتعاظه مما جرى على أبيه وجده يلدريم بايزيد.

وبالإضافة إلى الاستعدادات البرية للحصار، حشد السلطان محمد الثاني قوات بحرية لدعم حصار

إسطنبول من البحر بشكل خاص. كما أمر بتصنيع قذائف مدفعية هائلة في أدِرْنه تكون قوية بما يكفي لهدم أسوار بيزنطة، وكانت أكبر تلك القذائف تسمى "شَاهِي" (أي السلطانية)، وكانت أكبر حجما من أي قذائف شُوهدت من قبل. كما أعد السلطان كذلك مدافع طويلة المدى يتجاوز مدى قذائفها أسوار المدينة. وطرح محمد الثاني موضوع الفتح على مجلس الشورى ووافقت غالبية رجال الدولة على أمر الفتح، وعلى الرغم من أن بعضهم أشاروا إلى اتخاذ الحيطة والحذر، إلا أنه بالاستناد إلى رأي الغالبية العظمى شرع في أعمال الفتح. فانطلق من العاصمة أدِرْنه لحصار إسطنبول يوم ٦ أبريل/نيسان عام ١٤٥٣. وحمل سفير محمد الثاني اقتراحا للإمبراطور البيزنطي مباشرة من المعسكر الإمبراطوري الذي أقيم خلف أسوار بيزنطة المنيعة بين بوابتي أدِرْنه وطُوب قَابي لتسليم القلعة عن طريق السلم، لكن الإمبراطور البيزنطي رفض هذا الطلب. وبقعقعة المدافع حول أسوار المدينة بدأ الهجوم العثماني.

كانت أكبر عقبة واجهت العثمانيين في حصارهم لإسطنبول هي سد الإمبراطور البيزنطي مدخل الخليج (القرن الذهبي) بالسفن القديمة الخربة ومجموعات من السلاسل، إضافة إلى ما أسماه البيزنطيون بالحريق اليوناني، وهو مادة قابلة للاشتعال حتى في الماء، وقد مثّل ذلك صعوبة كبيرة أمام تقدم الجيش العثماني، حتى استشهد بعض الجنود في نيران هذا الحريق.

كان يعيش في إسطنبول قوميتان في ذلك الوقت، وهما الإغريق واللاتين.[١٢] وكان الإغريق المحليون يكرهون المستوطنين اللاتين، فرفضوا واعترضوا على حضور الإمبراطور على الطقس الديني الأول الذي أقيم وفقا لمبادئ التوحيد الكنسي التي تم التوقيع عليها مع البابا في كنيسة أياصوفيا من أجل حشد أوروبا المسيحية ضد عدو مشترك. وسادت في المدينة في ذلك الوقت فكرة أن "عمّة الأتراك أفضل من قلنسوة اللاتين".

خلال الحصار الذي دام أربعة وخمسين يوما من ٦ أبريل/نيسان عام ١٤٥٣ وحتى ٢٩ مايو/أيار ١٤٥٣ شن الجيش العثماني هجمات من البحر أيضا وليس فقط من البر. كان خليج القرن الذهبي مغلقا بسبب سد السلاسل الممدودة عبر مصبه لمنع السفن من الدخول إلى هذا المدخل من البوسفور، غير أن البيزنطيين لم يتوقعوا خطة السلطان الشاب الذي رأى أن يجري نقل السفن الحربية العثمانية عبر البر على زلاجات مدهونة بمادة دهنية إلى الشاطئ الشمالي للقرن الذهبي لتجنب السلاسل، وكذلك القلاع التي تسد مدخل المدينة. وفتح العثمانيون إسطنبول في يوم الثلاثاء ٢٩ مايو/أيار عام ١٤٥٣. ودخل محمد الثاني، الذي عرف بالسلطان محمد الفاتح منذ ذلك الوقت، المدينة من خلال بوابة "أدِرْنه". وأقام الصلاةَ في أياصوفيا ومنح البيزنطيين الأمان على أرواحهم وممتلكاتهم من الذين يدخلون كنيسة في أياصوفيا من جميع أنحاء المدينة. وأكد

---

(١٢) انطلقت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠١-١٢٠٤) بناء على أمر من البابا إنوسنت الثالث لاستعادة أورشليم تحت الحكم المسيحي. غير أنها انحرفت عن مسارها واستقرت في القسطنطينية في نهاية المطاف. وفي ١٣ أبريل/نيسان عام ١٢٠٤ احترق الصليبيون الأسوار البيزنطية ونهبوا المدينة بالسرقة والعنف ضد المسيحيين المحليين. وبعد ذلك أقام الصليبيون الدولة اللاتينية في القسطنطينية عام ١٢٠٤ والتي دامت حتى عام ١٢٦١. وكانت هناك مشاعر كراهية وعداء متبادلة بين المستوطنين اللاتين والإغريق المحليين طوال الحكم اللاتيني. ولم تستطع بيزنطة بعد استعادتها للقسطنطينية من اللاتين أن تعيد للمدينة العظيمة مجدها القديم.

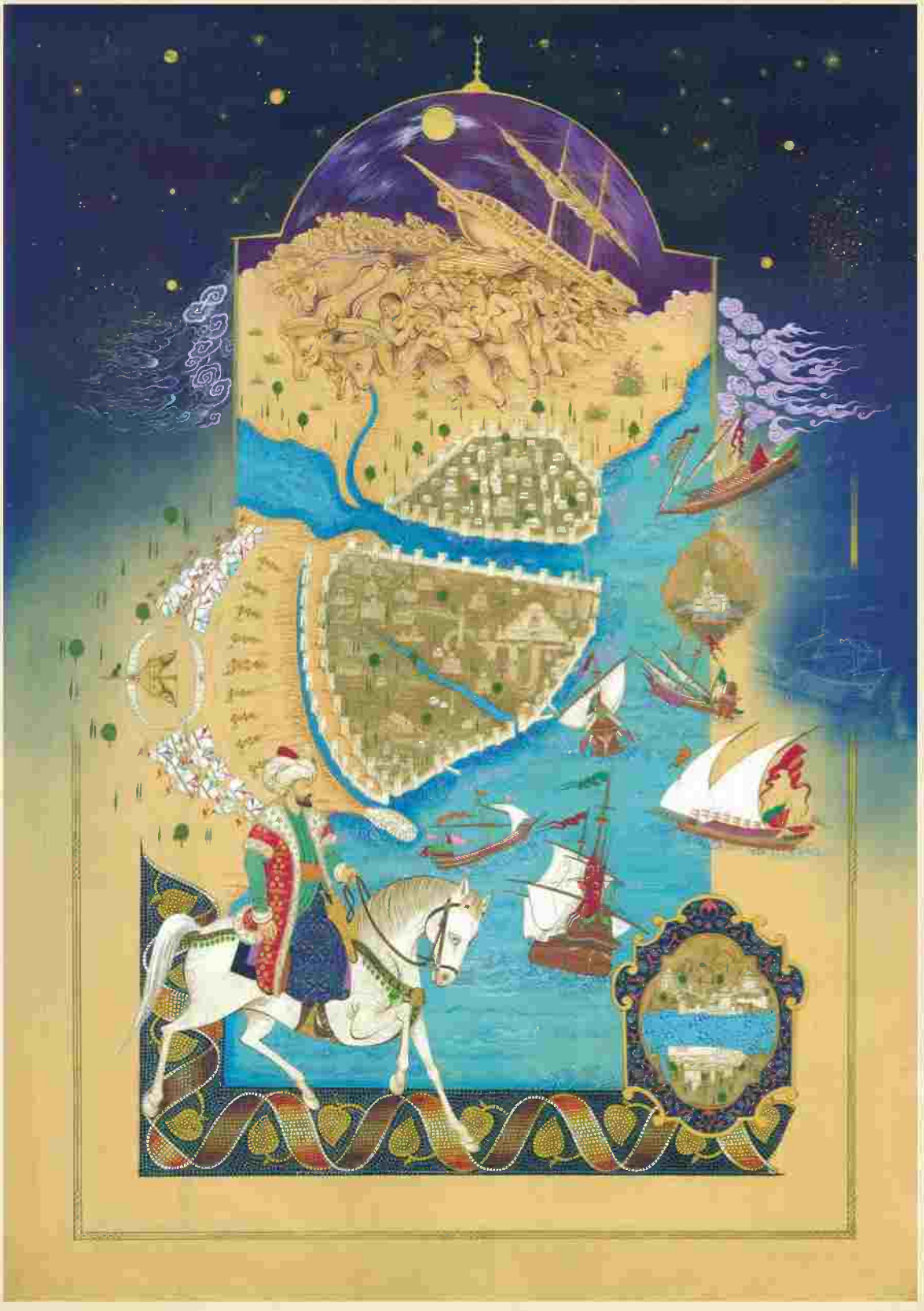

لوحة بفن المنمنمات تصور قصة فتح إسطنبول، من تصميم الفنان أوزكان أوزكان.

الفاتح أن السكان المحليين الذين يدفعون الفدية يستطيعون البقاء في إسطنبول، فبدأ الذين هربوا من المدينة في العودة إليها، وقدم لهم السلطان السكن وأعفاهم من الضرائب.

لم يكن السلطان محمد الثاني، الذي جعل إسطنبول العاصمة العثمانية الثالثة والأخيرة بعد بورصا وأدِرْنه، لم يكن فاتحا للبلاد فقط بل كان فاتحا لقلوب النصارى أيضا؛ حيث متعهم بالحرية الدينية والاعتقادية حتى يمارسوا متطلبات دينهم. ثم أشرف على شؤون الكنيسة الأورثوذكسية بنفسه، وحال دون اتحادهم مع الكاثوليك. وعقب هذه الأمور شرع السلطان في أعمال الإعمار والإسكان في إسطنبول حيث كانت في حالة بائسة، وتحسنت الأوضاع الاقتصادية. وقد قُدّر لعاصمة الفاتح الجديدة أن تكون المركز الجديد لدار الإسلام، وأن تكون عاصمة حضارة عظيمة.

في الوقت الذي فتح فيه العثمانيون المدينة، كان المجد الإمبراطوري لإسطنبول قد ولّي تقريبا، وكان عدد سكانها في تناقص بالفعل منذ فترة الاحتلال اللاتيني. وبالتالي فقد تركزت سياسات السلطان محمد الفاتح بعد ذلك على إعادة بناء المدينة المستنزفة

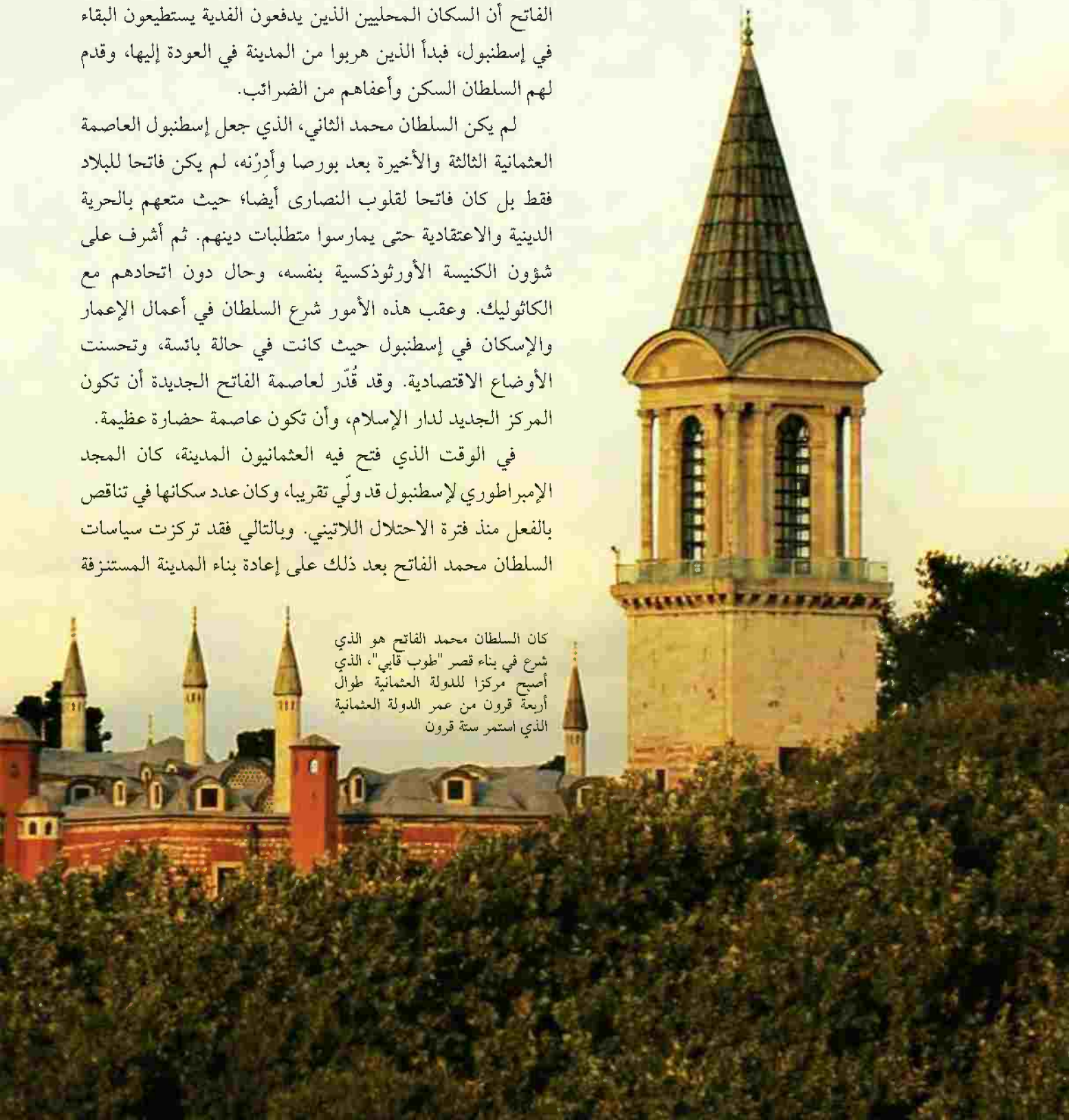

كان السلطان محمد الفاتح هو الذي شرع في بناء قصر "طوب قابي"، الذي أصبح مركزا للدولة العثمانية طوال أربعة قرون من عمر الدولة العثمانية الذي استمر ستة قرون

وإعمارها بالسكان، وهو ما يعكس شخصية الدولة متعددة الأعراق. وقد بدأ بالفعل نظام تعدد الجنسيات والأديان (نظام الملل)[١٣] لدى العثمانيين على يد محمد الفاتح بعد فتح إسطنبول. فمَنح اليهود والمسيحيين الحرية الدينية والعقدية فكسب قلوبهم. وزيادة على ذلك لم يَحُلَّ السلطان البطريركيةَ الأرثوذكسية، التي كانت بلا بطريرك في ذلك الوقت، بل إنه أعلن أنه سيكون حامي الكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية، فجعلها تحت إدارة محكمة من خلال تعيين "جينادوس سكولاريوس" بطريركا عليها عام ١٤٥٤. ورسّخ الفاتح حقوق العديد من الجاليات المسيحية بإصداره للقرارات السلطانية التي سميت "قانونْ نامَه". وتعد هذه القرارات بالنسبة للمسيحيين الفرنسيسكان في فوجنيتشا والبوسنة، على سبيل المثال، مثالا شهيرا على روح التسامح والحرية في الدولة العثمانية. وقد صدر قانون نامة في عام ١٤٦٣، وهو نفس العام الذي فتح فيه السلطان محمد الثاني أرض البوسنة، وكفل "قانون نامة" حرية الممارسة الدينية للكاثوليكيين البوسنيين لعدة قرون. وفي ذلك القرار السلطاني، الذي مازال موجودا في دير الفرنسيسكان القديم، أعلن الفاتح ما يلي:

"أنا السلطان محمد خان الفاتح،

أعلن للعالم أجمع أن،

أهل البوسنة الفرنسيسكان قد مُنحوا بموجب هذا الفرمان (المرسوم السلطاني) حماية جلالتي.

ونحن نأمر بأن:

---

[١٣] كان المجتمع العثماني يتكون من حليط استثنائي من الشعوب التي تنتمي لأعراق متعددة وعدد كبير من اللغات المختلفة. وكل حالية من تلك الجاليات ذات الأديان والأعراق المتعددة، التي كانت تسمى "ميليت" (أي أمة)، كانت تُعطى حرية ممارسة دينها دون تقييد، فاحتفظوا بثقافاتهم الخاصة، وعاداتهم، ولغاتهم، ومؤسساتهم التعليمية تحت حماية السلطان، بالإضافة إلى محاكمهم الخاصة المسؤولة ليس فقط عن القوانين الدينية ولكن أيضا عن القوانين المدنية الخاصة بشؤون الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والمواريث.

لا يتعرض أحد لهؤلاء الناس ولا لكنائسهم وصلبهم! وبأنهم سيعيشون بسلام في دولتي. وبأن أولئك الذين هجروا ديارهم منهم، سيحظون بالأمان والحرية. وسيُسمح لهم بالعودة إلى أديرتهم الواقعة ضمن حدود دولتنا العليّة.

لا أحد من دولتنا سواء كان نبيلاً، أو وزيرا، أو رجل دين، أو من خَدَمِنا سيتعرض لهم في عرضهم وفي أنفسهم! لن يهدد أحد، أو يتعرض لهؤلاء الناس في أنفسهم وممتلكاتهم وكنائسهم! وسيحظى كل ما أحضروه معهم من متاع من بلادهم بنفس الحماية... وبإعلان هذا الفرمان، أُقسم بالله العظيم الذي خلق الأرض في ستة أيام ورفع السماء بلا عمد، وبسيدنا محمد عبده ورسوله، وجميع الأنبياء والصالحين عليهم السلام، إنه لن نسمح بأن يُخالف أي من أفراد رعيتنا أمر هذا الفرمان!".

هناك بالفعل العديد من الأمثلة على هذه القرارات الدولة التي تدل على الحرية الدينية في الدولة العثمانية، وتُظهر التيسير والتسامح الذي اشتهر عن ممارسة الإدارة العثمانية. وقد جرى التعبير عن هذا التسامح باعتباره المكون الأساسي للهوية العثمانية على مستوى حكم الدولة، وكذلك على مستوى الحياة الثقافية اليومية.

وما إن فُتحت إسطنبول حتى بدأ السلطان الفاتح خطة إعادة إعمار واسعة النطاق لعاصمة الدولة الجديدة وإضفاء الطابع التركي الإسلامي عليها. فأمر ببناء مسجد السلطان أيوب الذي سمي باسم الصحابي أبي أيوب الأنصاري الذي توفي خارج أسوار المدينة

مسجد السلطان أيوب في إسطنبول

أثناء حصاره للمدينة عام ٦٦٩. وقد عُني الفاتح عناية خاصة بتحسين اقتصادها، فأصدر تعليمات ببناء سوق كبيرة ومباني أخرى. ومن خلال إضافة ثلاثة أبراج كبيرة للأبراج الأربعة البيزنطية الموجودة سلفا على أسوار المدينة الداخلية، أقام الفاتح حصن الأبراج السبعة، الذي يسمى "يَدِي قُولَه"، والذي استخدم كخزينة للدولة خلال معظم الحقبة العثمانية.

أدى الفتح العثماني لإسطنبول إلى إشعار الأوروبيين بشكل أكثر عمقا بالتهديد القوي الذي يمثله العثمانيون بالنسبة لهم، واتُّخذت عدة مبادرات لإقامة جبهة صليبية موحدة تتمتع بتشجيع قوي من البابا. وقد أراد السلطان محمد الفاتح إحباط توحيد المسيحيين ضد دولته، ولذلك اتفق مع البنادقة عام ١٤٥٤ على أن يسمح لهم بإرسال سفير (باليوس)[١٤] إلى إسطنبول وأن يتاجروا مع العثمانيين بشروط تجارية وجمركية مميزة. وفي الشرق، رفع فتح إسطنبول من شأن الدولة العثمانية في عيون العالم الإسلامي.

وكانت الخطوة الثانية للفاتح هي الشروع في سلسلة من الغزوات لإعادة التفوق العثماني وترسيخه في البلقان، الذي كان قد تم تحجيمه خلال حكم والده. وتمكن الفاتح من ضم جميع الأراضي الصربية للنطاق العثماني عام ١٤٥٩ فيما عدا بلجراد. ثم توجه بعد ذلك إلى المورة وطَرَبْزُونْ اللتين لهما قرابة مع بيزنطة، ومن شأنهما أن تعيدا تأسيس الدولة البيزنطية ففتح أولا جزيرة المورة على الطرف الجنوبي للبلقان عام ١٤٦٠. فضمِن هذا النصرُ قاعدة إستراتيجية لإمداد حملاته المستقبلية على إيطاليا. وفي العام التالي توجه محمد الفاتح بجيشه إلى إمبراطورية طربْزونْ على شاطئ البحر الأسود لشمال الأناضول. فطلبت إمبراطورية طربْزون المساعَدة من البابا ضد العثمانيين كما تحالفت مع "أُوزُونْ حَسَن"

النسخة الأصلية من "قانون نَامَه" الظاهر أعلاه مازالت محفوظة في دير الفرنسيسكان الكاثوليكي في فوجنيتشا، وهي واحدة من أقدم الوثائق في تاريخ حقوق الإنسان والحريات، ودخل حيّز التنفيذ في ١٤٦٣، ومنح ضمانات قانونية قبل الثورة الفرنسية (١٧٨٩) بنحو ٣٢٦ عاما، كما سبق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨، بنحو ٤٨٥ عاما.

(١٤) "باليوس": هو المصطلح الذي استخدم خلال العصور العثمانية للدلالة على السفير البندقي في إسطنبول. وكلمة "بايلو" بالإيطالية تعني وكيل دبلوماسي أو قنصلي. كانت البندقية تمتلك ميزة التمتع بروابط تجارية مع الإمبراطورية العثمانية من خلال البايلوس بارتليمي مارتشيللو، وهو أول سفير مقيم يصل إلى العاصمة العثمانية بعد عام من فتح إسطنبول عام ١٤٥٣. وبعد ذلك بفترة طويلة وصل سفير فرنسا المقيم عام ١٥٣٥، وسفير إنجلترا عام ١٥٨٣ وسفير هولندا عام ١٦١٢. ولأن العلاقات مع الباب العالي، أي الحكومة العثمانية، كانت شديدة الأهمية لتلك الدول، فقد تنافسوا فيما بينهم لمنع وصول سفراء مقيمين جدد إلى إسطنبول. وعندما تم الاعتراف بـ"ويليام هاربورن" باعتباره الممثل المقيم للتجار الإنجليز في الأراضي العثمانية، تعاون الباليوس البندقي مع السفير الفرنسي في إسطنبول في محاولة لمنع قبول السلطان به.

خوذة استعراض عسكري عثمانية، مرصعة بالجواهر، قصر "طوب قابي"

حاكم دولة "آقْ قُويُنْلُو" التركمانية بشرقي الأناضول، وهو ما دفع العثمانيين إلى الإسراع في حملتهم على طرَبْزُونْ. وبعد رحلة عسكرية مضنية في طرَبْزُونْ، نجح السلطان الشاب في إسقاط إمبراطورية أخرى عام ١٤٦١.

اضطر الفاتح إلى تغيير مساره عائدا إلى البلقان للقيام بحملة أخرى ردا على تحالف أمير ولاشيا "فِلاد دراكولا" (Vlad Dracula) -والمعروف أيضا باسم "فلاد المُخَوْزِق" (لاشتهاره بتعذيب وقتل أسراه وأعدائه على الخازوق)- مع المجر، إضافة إلى اعتدائه على الأراضي العثمانية في البلقان. وفي حملته الأولى على ولاشيا قام الفاتح بضم ولاشيا إلى الحكم العثماني في عام ١٤٦٢. وكان يلدريم بايزيد (الذي حكم من ١٣٨٩ إلى ١٤٠٢) قد أجبر البوسنة على دفع الجزية سنويا، غير أنها أصبحت تتحدى السلطة العثمانية وتدعم الأمير الولاشي ضد العثمانيين. ولما كانت البوسنة الهدف الثاني للسلطان في المنطقة، فقد أصبحت منطقة عثمانية، وأقيمت عليها المؤسسات الحدودية العثمانية عام ١٤٦٣. وفي وقت قصير نسبيا، انتشر الإسلام على أراضيها. وفي نفس الأثناء أعلنت إمارة الهرسك ولاءها للعثمانيين عام ١٤٦٥. ولاحقا في عام ١٤٧٦، أصبحت مولدافيا شمال ولاشيا إقليما من أقاليم الدولة العثمانية. وبعد وفاة اسكندر بك، بدأت ألبانيا أيضا في رفع العلم العثماني عام ١٤٧٩. وختمت هذه الإضافة الأخيرة لألبانيا سلسلة من الفتوحات الناجحة في شبه جزيرة البلقان.

بعد إلحاق البلقان بالنطاق العثماني، قرر الفاتح أن يسعى لتعزيز الوحدة في الأناضول والسيطرة على تجارة البحر الأسود المربحة. فاستولى على آمَاسْرَا من الجنويين في عام ١٤٦٠، ثم قَصْطَمُنُو (قسطموني) والمنطقة المجاورة لها بعد وضع نهاية لإمارة بني الإسفنديار التركمانية عام ١٤٦١. وأخيرا رسخ فتح طرَبْزُونْ السيطرة العثمانية على الشواطئ الأناضولية للبحر الأسود.

وفي وسط الأناضول، تحالف الكرمانيون مع البنادقة ضد العثمانيين مما جعل السلطان محمد الفاتح يقوم بحملة ضد الكرمانيين، فاستولى على قُونْيَةْ وكَرَمَانْ وجعل معظم الإمارة تحت الحكم العثماني المباشر في عام ١٤٦٦. ولجأ بِير (Pir) أحمد البك الكرماني إلى أُوزُونْ حسن حاكم دولة "آقْ قُويُونْلُو" مما تسبب في تدهور العلاقات بين العثمانيين ودولة آقْ قُويُونْلُو

كان سكان دولة "آقْ قُويُونْلُو" التركمانيون، الذين نجحوا في إقامة دولة قوية في شرق الأناضول في مطلع القرن الخامس عشر، عازمين على توسيع حدودهم على حساب الدولة العثمانية، مما تسبب سريعا في اندلاع صراع بين الدولتين. تحالف أُوزُونْ حسن ضد العثمانيين مع كل من الكرمانيين وإمبراطورية طرَبْزُونْ والبندقية. فتوجه الفاتح بجيشه لملاقاة أُوزُونْ حسن الذي أدى طموحه إلى اتفاق دولته مع الدول المسيحية

لوحة للسلطان محمد الفاتح وهو يدخل إسطنبول عبر بوابة أدرنة، رسمها فنان البلاط العثماني فاسوتو زونارو عام ١٩٠٨

على حساب دولة مسلمة أخرى. وانتصر العثمانيون في معركة أُتْلُوكْبَلِي في شرق الأناضول عام ١٤٧٣، وخسرت دولة "آقْ قُويُونْلُو" قوتها اللازمة لتحدي العثمانيين فيما بعد. ومكّن هذا النصر الحاسم في معركة "أُتْلُوكْبَلِي" الفاتح من تأمين الجانب الشرقي لدولته.

في بادئ الأمر، كان الفاتح يسعى لإقامة علاقات طيبة مع المماليك الذين كانوا يحكمون مصر وسوريا ومنطقة الحجاز في غرب شبه الجزيرة العربية. وبعد أن استولى على أراضي الكرمانيين في وقت لاحق، أصبحت الدولة العثمانية دولة مجاورة لإمارة بني دُولْقَادِر التي كانت تحكم منطقة مَارَاشْ (مرعش) جنوب شرق الأناضول وتوالي المماليك. هذا التقارب الإقليمي غيّر من مسار العلاقات العثمانية المملوكية ليجعلها علاقة عداء وحرب. وعندما علم العثمانيون أن المماليك يريدون الاستيلاء على أراضي دولة بني "دُولْقَادِر" الذين كانوا يتمتعون بعلاقات مع الأسرة العثمانية الحاكمة كان ردّ فعل العثمانيين شديدا؛ ومن هنا تدهورت العلاقات العثمانية المملوكية.

كان المماليك يسيطرون على جزء مهم من الشرق الأوسط يضم منطقة الحجاز وفيها المدينتان المقدستان مكة والمدينة المنورة. وعندما اشتكى الحُجّاج من نقص المياه الصالحة للشرب في الطريق إلى الحجاز، أرسل الفاتح فريقا من الحرفيين من إسطنبول لشق الآبار على الطريق، وإصلاح الآبار التي لا تعمل بشكل جيد. وازدادت العلاقات المتدهورة سوءا عندما أعاق المماليك الحرفيين عن العمل الذي كلفهم به الفاتح.

أراد السلطان محمد الفاتح أن يسيطر على أوروبا اقتصاديا من خلال السيطرة على شبكات التجارة التي تمتد من البحر المتوسط عبر بحر إيجة إلى البحر الأسود، ولذلك فقد أقام أحواض بناء السفن في "كَلِيبُولُو وإزْمِيت وكَمْلِيكْ (Gemlik) وإسطنبول. وبفضل القوة البحرية التي وفرتها هذه الأحواض، ظهر سلاح بحري عثماني يمتلك ما يكفي من القوة لتحدي البنادقة والجنويين في البحر.

تلقت تجارة البندقية الشرقية ضربة قوية عندما استولى الفاتح بشكل كامل على المورة وصربيا والبوسنة وألبانيا. ولذلك عقدت البندقية تحالفا مع المملكة المجرية والإمارة الألبانية. وخلال الحرب التي خاضها العثمانيون طوال ستة عشر عاما (متقطعة) ضد هذا التحالف، الذي دعمه الكَرَمانيون ودولة "آقْ قُويُونْلُو"، رفعت العديدُ من جزر بحر إيجة العلمَ العثماني وعلى رأسها جزيرة "أَكْرِيبُوزْ" (Eğriboz)، وهي إحدى أهم الجزر التابعة للبندقية. وعندئذ لم تجد البندقية خيارا آخر غير أن تطلب السلام، وكان ذلك في عام ١٤٧٩. ونصت معاهدة الصلح على احتفاظ العثمانيين بمناطق كرُويَا (Kroya) وإشكودرا (İşkodra) في شمال غرب البلقان، وعلى أن يدفع البنادقة تعويضات عن الحرب وضرائبَ سنويةً، وعلى أن يتم إبقاء السفير البندقي في إسطنبول، بالإضافة إلى حق نقل التجارة في البحار الخاضعة للعثمانيين من دون جمارك.

بعد أن رسّخ الفاتح السيادة العثمانية على الشواطئ الأناضولية للبحر الأسود، قام بإرسال "كَدِك أحمد

لوحة بفن المنمنمات للسلطان الفاتح،
وهي بريشة الفنان شبلي زاد أحمد، ورُسمت عام ١٤٧٥.

باشا" إلى شمال البحر الأسود، ونجح كَدِيكْ أحمد باشا عام ١٤٧٥ في ضم مستعمرات آزاق وكفّه ومنكوب إلى النطاق العثماني في شبه جزيرة القرم، التي كانت تتبع مملكة جنوا. وبعد وفاة "حاجي كِيرَاي"، حاكم القرم، دخل أبناؤه في صراع على العرش. وقد ضاعف الاضطرابَ السياسي في المنطقة خروج حاكم القبيلة الذهبية بجيشه متجها إلى القرم. غير أن كَدِيكْ أحمد باشا، الذي كان يراقب الموقف عن كثب، شن حملة واستطاع إلحاق القرم بالدولة العثمانية عام ١٤٧٧. وقد مثّل ذلك الفتح إعلانا للسيادة العثمانية على البحر الأسود وطردِ الجنويين من تلك المنطقة.

وعندما بدأت مملكة نابولي في إيطاليا باتباع سياسة عدائية ضد العثمانيين في بحر إيجة والبحر المتوسط، قام السلطان الفاتح بتعيين كَدِيكْ أحمد باشا قائدا على حملة إيطاليا. ونتج عن سلسلة الحملات التالية سيطرة العثمانيين على جزر زنطة وكفالونيا ولفيكادا في البحر الأيوني، بالإضافة إلى أوترانتو في مملكة نابولي على شاطئ البحر الأدرياتيكي في جنوب إيطاليا عام ١٤٨٠. لكن الموت المفاجئ للسلطان الفاتح في عام ١٤٨١ عطل الحملة على إيطاليا، كما استعادت مملكة نابولي أوترانتو بمجرد مغادرة كَدِيك أحمد باشا لإيطاليا.

توفي السلطان محمد الفاتح يوم ٣ مايو/أيار عام ١٤٨١ في "هُونْكَارْ جايِرِي" بالقرب من مَالْتَبَة على الجانب الأناضولي من إسطنبول اليوم، حيث غادر إسطنبول من خلال ميناء أُسْكُودَارْ للقيام بحملة جديدة. ورغم أن الروايات تقول بأن الفاتح كان يقود حملة باتجاه الشرق، إلا أن السجلات التاريخية تروي أنه ربما قد يكون مات بالسم بفعل طبيب بندقي وهو في طريقه إلى روما، أو أنه توفي فجأة بسبب النقرس الذي كان يعاني منه.

كان السلطان محمد الفاتح قوي البنية، طويل القامة، أحدب الأنف، غليظ الشفتين. وكان يتمتع بشخصية ذكية وقوية لا تفضل المرح واللهو. وكان يحترم العلماء ورجال المعرفة، فكان يستمتع باللقاء بهم ويقدم دعما كاملا لجميع أنواع البحث العلمي. وكان الفاتح على دراية قوية بخمس لغات على الأقل من بينها التركية والعربية والسلوفانية القديمة واليونانية، وقد أثرى مكتبته بعدد هائل من الكتب العلمية المكتوبة بمختلف اللغات. وقد بقي خمسون كتابا من المكتبة الشخصية للفاتح إلى الآن عن الثقافات الغربية، اثنان وأربعون منها كتبت باليونانية. ومن هذه الكتب الاثنين والأربعين ثمانية تتعلق بالتاريخ، وستة بالرياضيات والفلك. وتشكل كتب التاريخ والجغرافيا أكثر من ثلث المجموعة بكاملها التي مازالت موجودة في مكتبة متحف قصر "طوب قابي".

كان محمد الفاتح -إضافة إلى تمتعه ببُعد النظر والثقافة- قائدا استثنائيا يهدف إلى نشر الدين الذي يؤمن به في أرجاء العالم وقد تجلى ذلك في مشاركته في خمس وعشرين حملة عسكرية. كما حاول دائما أن يجعل "الدولة العثمانية العالية" قوة عالمية من جميع النواحي.

خلال فترة حكمه تبنى الفاتح إدارة مركزية فيما يتعلق بشؤون الدولة، وانطلاقا من هذا، وضع حدا على الأُسَر التي تَرْغَبُ أن تكون كلمتها مسموعة في إدارة الدولة، وقام بترقية الوزراء من بين المخلصين له،

القباب الداخلية لمسجد الفاتح، الذي بناه السلطان محمد الثاني في ضاحية الفاتح بإسطنبول.

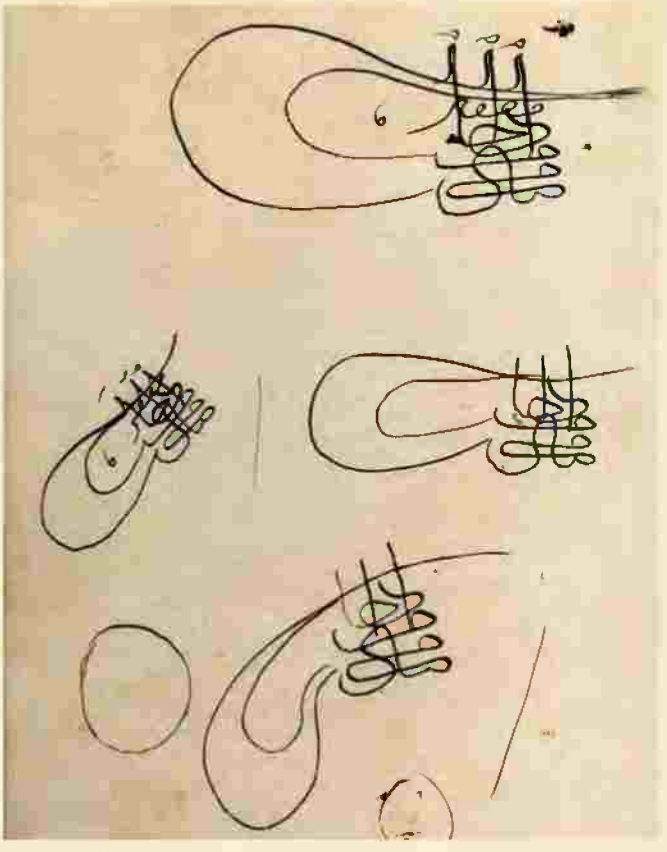

تدريب التوقيع بخط اليد الذي كان يقوم به السلطان محمد الفاتح في دفتره خلال طفولته. وكان كل سلطان عثماني له توقيع رائع ومتميز، يسمى طغراء، ويكتب بخط يد أنيق ومعبر. ويعود أول رسم طغراء للسلاطين العثمانيين إلى أورخان غازي، ثاني السلاطين العثمانيين. وكان لكل سلطان بعده الطغراء الخاص به منذ بدء حكمه. وفيما بعد أصبحت تصميمات الطغراء، التي كانت تستخدم في البداية في الوثائق الرسمية والمراسلات لمنحها صفة رسمية، كانت تشاهد على الأختام السلطانية والرايات والآثار والمساجد والقصور والعملات والطوابع وجوازات السفر كرمز للسيادة.

وخلال هذا الكتاب يجري عرض خمس وثلاثين طغراء لجميع السلاطين العثمانيين، كل طغراء بجوار اسم صاحبها، بدءا من أورخان غازي وحتى آخر سلطان عثماني وهو السلطان محمد وحيد الدين. ويلاحظ أن نمط الخط الخاص بالسلطان أورخان والذي عبر عنه باسم "أورخان- بن عثمان" قد كتب في الجزء السفلي من الطغراء، وشكّل الهيكل والنص الرئيسي للطغراء التي جاءت بعد ذلك، والتي تطورت، وشمل هذا التطور تعبير "المظفر دائما" والألقاب التشريفية للسلاطين. ويمكن أن نرى في هذا الكتاب كيف تطورت الطغراء ببطء من زمن السلطان أورخان غازي إلى الأوقات اللاحقة. حتى وضعت معايير تصميم الطغراء في زمن السلطان محمد الفاتح ووصلت إلى شكلها الفخم في زمن السلطان سليمان العظيم في القرن السادس عشر الميلادي. وبدءا من عهد السلطان محمد الفاتح كان يجري زخرفة الفراغ بين حروف الطغراء، وهو تقليد استمر حتى منتصف القرن التاسع عشر. وبالإضافة إلى هذا استخدم فنانو الخط في البلاط الملكي الأحبار السوداء والحمراء والخضراء والزرقاء، إضافة إلى الذهب، في كتابة الطغراء. ولم يكن اختيار الألوان اعتباطيا، بل كان لكن لون معنى خاص في البروتوكول العثماني.

ومنحهم سلطة أكبر، فأثمرت إستراتيجيته تلك عن تشكيل فريق فعّال وناجح من رجال السياسة يضم مستشارين من فلورنسا وجنوا وراجوزا.

لقد استوعب السلطان جيدا نتائج تمرد الانكشارية خلال فترة حكمه الأولى، ولذلك شهدت فترةُ حكمه الثانية إعادة بناء قوات الانكشارية والحد من التصرفات المطلقة الحرة لحكام الإمارات. ونجح الفاتح في النهاية في السيطرة على الجيش سيطرة كاملة.

كان الفاتح من المعجبين بالتاريخ، فقد درس التاريخ الروماني، على سبيل المثال، وهو ولي للعهد على أيدي مؤرخين إيطاليين، وأمر الفاتح العالم اليوناني جورجوس أميروتس بإعداد خريطة للعالم في عام ١٤٥٦. ومما يدل على التسامح الديني للسلطان الفاتح أنه سمح لليونانيين الأرثوذكس والجاليات الأرمينية بأن يكون لهم بطاركة مسؤولون عن كل جالية منهم، كما كان للجالية اليهودية حاخام رئيسي في إسطنبول، وكانوا يتعايشون جميعا بسلام في العاصمة الجديدة للدولة. ويمكن فهم جميع تلك القرارات باعتبارها علامة على أن الفاتح كان يسعى لجعل الدولة العثمانية هي القوة العالمية المسيطرة. وبالنسبة له كانت حماية دار الإسلام ضد أي هجوم أمرا أكثر أهمية من أن يصبح قوة عالمية، فكانت هذه الفكرة نصب عينيه دائما في صنعه للسياسات. وقد سعى جاهدا إلى المحافظة على وحدة الدولة العثمانية، والتخلص من هؤلاء الذين ينجرفون إلى صراعات دامية للمطالبة بالعرش، حتى لا تعاني الدولة من صراعات داخلية على العرش، بل تستخدمَ كل طاقتها من أجل الفتوحات الخارجية.[١٥]

---

[١٥] في التاريخ العثماني، كان تنافس أولياء العهد يؤدي أحيانا إلى حرب أهلية لها تأثيرها التخريبي على الدولة. فقد أدى ذلك الى أن تمزقت للنطقة مثلا بسبب الحرب الأهلية بين أبناء بايزيد، حيث رغب كل منهم في اعتلاء العرش العثماني، ودامت هذه الحرب لما يقرب من عشر سنوات بعد هزيمة السلطان بايزيد الأول أمام جيوش تيمورلنك في أنقرة عام ١٤٠٢. وأحيانا كان أولياء العهد للنهزمون في هذا التنافس يهربون إلى مناطق حكم مسيحية أو مسلمة معادية للعثمانيين، وبالتالي تصبح

كان الفاتح يتقن الشعر، وكتب الكثير من القصائد بالاسم المستعار "عَوْني". واستخدم في قصائده تعبيرات صافية ولغة سلسة، بل إن قصائده تعتبر واحدة من أفضل نماذج الشعر العثماني التركي.

وبالإضافة إلى المعرفة الدينية كان الفاتح مهتما بالجغرافيا والرياضيات والفلك. وقد دعا عددا كبيرا من العلماء ليدرّسوا له هذه العلوم. وكان يتلقى دروسه على فترات منتظمة، حيث حدّد ساعات معينة لحصص معينة يوميا. وكان من بين مدرسيه علماء بارزون معاصرون مثل الملا كوراني، و"خُوجَا زَادَهْ مصلح الدين"، و"الملا إلياس"، و"سراج الدين حلبي"، والملا عبد القادر، و"حسن سَمْسُوني"، والملا خير الدين. كما لعب معلمه الخاص ومستشاره الشيخ "آق شمس الدين" دورا عميقا في تعليم الفاتح.

أولى السلطان محمد الفاتح التعليم أولوية قصوى. فبعد فتح إسطنبول، تم تحويل ثماني كنائس إلى مدارس أو مؤسسات للتعليم العالي بما فيها مدرسة آياصوفيا. وأقام أيضا المدرسة الشهيرة التي سميت "ساهْنِ سَمان" (Sahn-ı Seman) (وهي جامعة إسطنبول اليوم) بالقرب من مسجد الفاتح، الذي يعد أحد أكبر الأمثلة على فن العمارة الإسلامية. وكان معتادا على تفتيش المدارس بنفسه، والاشتراك في

تلك المناطق مواقع استحماع للقوة للقيام بحملات عسكرية ضد العثمانيين. فمثلا قام جم، ابن السلطان محمد الفاتح وأخو السلطان بايزيد الثاني، بالهرب إلى أوروبا لأربعة عشر عاما حتى توفي عام ١٤٩٥، وظل وجوده يشكل تقييدا على الحكومة العثمانية التي كانت تخشى من احتمال محاولته الوصول للعرش بدعم من تحالف أوروبي. وقد شهد العرش العثماني، بشكل طبيعي، تنافسات من أجل اعتلاء العرش فيما بين الإخوة، بسبب غياب قانون ينظم الخلافة على العرش. وبالتالي حاول أولياء العهد الذين كانوا يُرسَلون لشغل مناصب المحافظين على الأقاليم المختلفة، ضمانَ شغل مناصب محافظين على أقاليم قريبة من العاصمة، في حين ما يزال أبوهم على قيد الحياة، وكانوا يسعون لضمان عاصمة الدولة من خلال كسب دعم مسؤولي القصر وعلماء الدين وقوات الانكشارية. وقد أثارت التحرية الخاصة بمحمد الثالث (الذي حكم من ١٥٨٥ —إلى ١٦٠٣)، الذي أعدم أولياء العهد الآخرين بُعيد اعتلائه العرش، رد فعل شعبيا مروعا، وبعده تم إقرار نظام جديد للخلافة في الدولة العثمانية وهو نظام "الأكبرية". ولذلك فإننا نرى منذ أوائل القرن السابع عشر أنه نادرا ما حلف الابنُ والده السلطان بعد وفاته، ولكن كان يخلفه في غالب الأحيان فرد كبير من السلالة الحاكمة أو الأخ الكبير أو العم.

الصفحة التالية: منظر جوي لمسجد أيا صوفيا، الذي يبلغ عمره ١٥٠٠ عام، بإسطنبول. وقد ظل هذا الصرح الهائل، الذي تتوسطه قبة يصل طول قطرها إلى ٣٣ مترا، يحيط بها عدد من القباب الأخرى، ظل باقيا حتى وقتنا هذا بفضل بروتوكول القصور العثمانية الذي يعطي الأولوية لهذا التراث العظيم للمدينة.

سيف السلطان محمد الفاتح.

الندوات، ومكافأة الطلاب المتميزين. وقد أثبتت خلفيته الفكرية في مجال الفلسفة شموليتها وقوتها حينما كان يشارك في مناقشات مثيرة مع فلاسفة الغرب. وفي مجلسه كان مفكرون كبار من الشرق والغرب، مثل أميروتزس (Amirutzes) و"عِلي كُوشْجُو" (قُوشي) وجورجوس ترابَزونْتيوس (Georgios Trapezuntios) و"خُوجَا زَادَهْ مصلح الدين"، يجدون الأرضية المشتركة اللازمة لشرح آرائهم ومناقشتها.

خلَف محمد الفاتح وراءه الكثير من الإنجازات. وكانت له ابنتان هما عائشة وجوهر خان، وتزوجت الأخيرة من ابن "أُوزُونْ حَسَنْ". وكان "كُودَه أحمد"، الذي سيعتلي عرش مملكة "آقْ قُويُونْلُو" لاحقا، ابن جوهر خان وحفيد الفاتح. كما أمر الفاتح بإتمام البناء الأولي لقصر طوب قابي، وهو المقر الرسمي والأساسي للسلاطين العثمانيين في إسطنبول على مدى أربعة قرون من القرون الستة التي حكموا خلالها. وتعد إسطنبول الإرث الأكثر روعة للسلطان الفاتح. فقد تولى فيها تنفيذ مشروع ضخم، فأنشأ عددا من أروع المعالم في الحضارة الإسلامية والإنسانية مثل مسجد الفاتح والمدارس العديدة. وسوف تصبح إسطنبول أكبر مدينة في أوروبا خلال القرن الذي تلا محمدا الفاتح.

منظر لجزيرة إسطنبول التاريخية ومنطقة غَلَطة، مع لوحات تُصور السلاطين بدءا من عثمان غازي، وحتى السلطان مراد الثالث.

لوحة لوجه السلطان محمد الفاتح على قماش، بريشة الفنان الإيطالي جنتيل بَلّيني، في ٢٤ نوفمبر/تشرين الثاني، ١٤٨٠. وكتب في أسفلها على اليسار باللغة اللاتينية "فيكتور أوربيس" أي "فاتح العالم". ويبدو أن بَلّيني قد رسم التيجان الثلاثة على طرفي القوس رمزا للسلاطين العثمانيين الستة الذين سبقوا السلطان محمد الثاني. ويوجد التاج السابع الخاص بالسلطان محمد الثاني في الغلاف الذي يطرز البورتريه. وعلى اليسار توجد لوحة لفن المنمنمات للفاتح من عمل الفنان شبل زاد أحمد رُسمت عام ١٤٧٥.

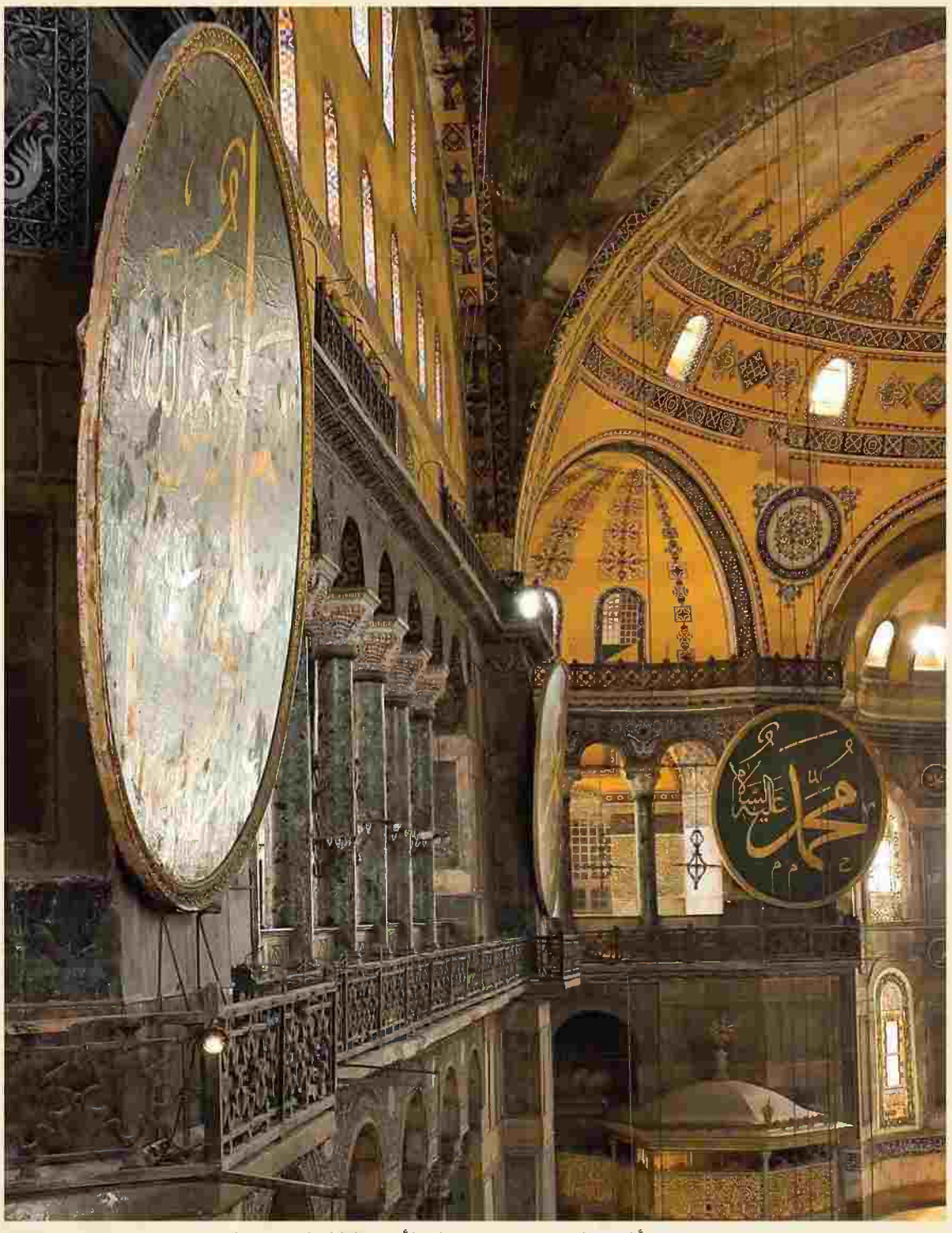

مدخل متحف أيا صوفيا وبه رسوم ضخمة على الأعمدة الهائلة التي تدعم القبة.